

عام 2015

## عام الشكر على العناية الإلهية الخفية

### عطية عدم النوم

ما أعجب شخصية القديس يوحنا الذهبي الفم، على الرغم من إنه عُرِفَ كرجل الآلام، غير أنه لا يكف عن أن يدفعنا نحو الكشف عن رعاية الله الفائقة، وتقديم الشكر الدائم عليها، خاصة في الأمور التي تبدو قاسية ومؤلمة.

فمن الأمور التي تدفعنا نحو تقديم حياة الشكر والتسبيح لله أنه يقدم للإنسان محبوبه مع كمال حرية الإرادة غير أنه لم يهبه القدرة على التحكم في لحظة النوم ولحظة الاستيقاظ حسب اختياره؛ إنما جعل الطبيعة البشرية نفسها تدفع الشخص للنوم أو عدمه أو للاستيقاظ.

عندما يعاني الإنسان الأرق وعدم القدرة على النوم، يلجأ أحياناً إلى المسكنات أو المواد المنومة. قد يحتاج الجهاز العصبي إلى الشفاء، لكن الذهبي الفم يُوجِّه أنظارنا إلى رعاية الله في هذا الأمر. جاء في ابن سيرياخ أن القلق على الثروة ينزع النوم (٣٠: ١). فإن عانينا من العجز عن النوم باختيارنا، يليق بنا أن نُعالج مصدر هذا العجز وهو إصابة الشخص بالقلق.

قلق الإنسان على ثروته المادية أو حتى الروحية يكشف عن عدم صراحته والانفتاح على الله وبالتالي عدم ثقته فيه، سواء في الاهتمام باحتياجاته الزمنية أو تمتعه بعربون السماء. هذا علامة على ارتدادنا عن الله بعدم الاتكاء على صدر مُخْلِصنا مُتَمَثِّلِينَ بالقديس يوحنا الحبيب (يو ١٣: ٢٥).

وكأن الذهبي الفم يريدنا في حالة القلق أن نصرخ إلى الله، الذي يسهر على خلاصنا وإشباع احتياجاتنا الروحية والجسدية.

بالقلق نُحَرِّم من النوم، يسمح به الله، فعوض الشعور بالمرارة بسبب القلق يفتح قلبنا ليختبر عذوبة التوبة، طالبين أن يهبنا روح الرجاء والثقة في الله. فيصير عدم نومنا عطية لبنياننا حيث نرجع إليه فرحين ومتهللين.

لو أن الإنسان بكامل حرية إرادته ينام أو يستيقظ في اللحظة التي يريد، فقد يقتله القلق الداخلي الذي هو إلحاد عملي وهو لا يدري، لأن القلق غالباً ما يكون أحد ثمار عدم الإيمان العملي وعدم الثقة في الله.

يقول الذهبي الفم إنه عندما تشتد حرارة الشمس نهرب إلى مأوى يحمينا من الحرارة الشديدة فلا يحترق جسدنا. هكذا عندما تشتد نيران القلق في نفوسنا يليق أن نهرب إلى حضن الربِّ ملجأنا وراحتنا الأبدية حتى لا تحترق نفوسنا.

لا نعجب إن سمعنا المرثل يتعنى قائلاً: "يعطي أحبائه نومًا" (مز 127: 2). ماذا يعني بالأحباء

أو الأصدقاء سوى المُلتصقين بالربِّ، المُتمتَّعين بيقين الثقة في أبوته، فلا يستطيع القلق أن يتسلَّل إليهم مهما اشتدت التجارب، وبالتالي لا يعانون من الأرق.

عندما تشعر بالأرق يليق أن تطلب من الربِّ أن يكشف لك ما وراء هذا المرض:

1. غالبًا ما يكون مصدره ضعف الإيمان، وعلاجه الالتصاق بمصدر السلام والفرح والبهجة.
2. وقد يكون بسبب مرض عصبي أو نفسي أو جسدي، فنهتم بالعلاج الصحي، واثقين في الربِّ الذي يعمل بالأطباء والأدوية. وكما يقول القديس باسيليوس الكبير إن الله هو الذي أعطى البشر فن الطب، وهو الذي وهب الأرض استخراج الأعشاب التي تُستخدم كأدوية.
3. ربما بسبب الأناية الخفية في حياتنا، لبيتنا ننتقل منها، فلا نطلب ما هو لبهجتنا بل نُصلِّي من أجل كل البشرية كي يتكئ الكل على صدر الربِّ. حتى خلال قلقنا يتَّسع قلبنا حنوًّا على كل البشر الذين يعانون من عدم الشركة مع الله الكلي الحب، أو يعانون من الآلام الجسدية أو العصبية أو النفسية.
4. قد يكون بسماع من الله لبنيانك كما حدث مع حزقيا الملك، فعندما حلَّ به الضيق طار من عينيه النوم بل ومزَّق ثيابه (2 مل 19: 1). رأى أن الله هو إله المستحيلات، مُتخصِّص في المواقف المستحيلة. كشف عن ثقته في الربِّ، فقدم توبة، ودخل بيت الربِّ، يطلب مشورته وعونه. حقًا إن المشاكل هي فُرص ذهبية لتدخُل الله في حياتنا. حسب حزقيا الملك ورجاله أن ما حلَّ بهم وبالشعب، إنما هو تأديب يستحقونه على خطاياهم. فقبل أن يشنكوا ملك أشور ورجاله كُمدِّفين، اشتكوا أنفسهم كخطاة يستحقون التأديب. هذا ولم يقترح الملك ورجاله حلاً للمشكلة، أو نقمة من أشور، إنما طلبوا من رجل الله أن يعرض القضية بأكملها على الله، ويترك الأمر بين يديه ليفعل كيفما يشاء.

## صرخة من أعماق قلبي!

❖ هَبْ يا ربِّ لكل بني البشر الشفاء من القلق.

رُدِّ الكَلِّ إليك، فيصيرون أعباء لك ويتمتَّعون بالنوم كما في أحضانك.

تُبَارِكْكَ نفسي، إذ تسمح لي أن أصلب معك، فتحيا فيَّ، وتهبني قوة قيامتك!

هَبْ لي ولكل إخوتي ألاً نرتبك بهموم الحياة، إذ نتأمل في عذوبة حبك!

أُبَارِكْكَ وأُقدِّم لك ذبيحة الشكر كل الأيام، يا من تسمح لي بعدم النوم كي أرجع إليك،

لتستيقظ نفسي وتصرخ كي تشفيني من القلق.

أُسَبِّحْكَ يا أيها العجيب في حُبِّك،

تُخْرِجْ حتى من القلق ما هو لبنيان نفسي ونفوس الكثيرين!